أغاثا كريستي

عيّنة من الكتاب

(للتصفح والاطّلاع)

كَلْبُ المَوْت

بسم الله الرحمن الرحيم

أغاثا كريستي

كَلْبُ المَوْت

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٣

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

صورة الغلاف مُستوحاة من قصة «قضية السير آرثر كارمايكل»

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لمجموعة أغاثا كريستي القصصية
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٣ بعنوان

The Hound of Death

Copyright Agatha Christie Mallowan 1933

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنَع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبَق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة
٢٠٢٠

مقدّمة الناشر

لماذا هذه الطبعة؟

عندما أعلنّا -في مؤسسة الأجيال للترجمة والنشر- عن عزمنا على تقديم ترجمة جديدة لأعمال الروائية الفَذّة، أغاثا كريستي، تساءل كثيرون باستغراب: لماذا تُجهدون أنفسكم وتتكلفون كثيراً من الجهد والعناء وكثيراً من المال لإعادة ترجمة هذه الروايات التي تُرجمت إلى اللغة العربية من قديم وتداولها الناس لعشرات السنين؟

ولكن الحقيقة (التي ربما بدت غريبة) أن الترجمة القديمة ذاتها هي الجواب عن هذا السؤال، إذ إن فيها من الأخطاء والنقائص ما لا يصلح معه الحال أو يستقيم بغير إعادة الترجمة وإعداد طبعة جديدة. وأول تلك النقائص (وإن بدت غيرَ ذات أهمية للقارئ العربي ظاهراً) أن أياً من الترجمات القديمة لم تكن «شرعية» بالمعنى القانوني، أي أن الذين نفّذوها ونشروها لم يحصلوا على الإذن بطباعتها ولم يدفعوا شيئاً مقابل حقوق النشر، ومن ثَمّ لم يهتموا بتجويدها أو إتقانها بقدر ما اهتموا بالربح العاجل والكسب السريع.

من هنا جاءت تلك الطبعات القديمة حافلة بالعيوب، حتى لا يكاد يصحُّ لمن قرأها أن يقول إنه -فعلاً- قرأ شيئاً من كتابات أغاثا كريستي. وإليكم جملة من تلك العيوب:

(١) في الترجمة نقص واسع وحذف كثير، يكاد يذهب -في بعض الأحيان- بثلث النص الأصلي. وما ندري ما الذي حمل المترجمين الأوائل على اقتراف هذا الخطأ المتعمَّد: أهو لتقليص حجم الروايات وتوفير نفقات الطباعة على الناشر، أم لتيسير القراءة على القارئ حتى لا يَمَلّ من قراءة رواية طويلة؟ ولكنْ مَن قال إن قراءة ما حُذف يبعث على الملل؟ الحقيقة أن ما وقع من حذف وتقليص واختصار قد أربك القارئ إذ غيَّبَ عنه بعض التفصيلات المهمة، كما فوّتَ عليه الاستمتاع بكثير من «اللمسات الساحرة» من الأدب الفذّ لأغاثا كريستي.

(٢) في الترجمات القديمة أخطاء كثيرة لأنها -بجملتها- نتاج عمل فردي متسرع هدفه الربح العاجل كما أسلفنا، وهذه الأخطاء (وكثيرٌ منها ساذج مضحك) أفسدت استمتاع القارئ بمتابعة القصة وكانت -أحياناً- عقبةً في طريق فهمه لحَبْكَة الأحداث وعقدة الرواية.

(٣) فضلاً عن أخطاء الترجمة، حفلت تلك الطبعات القديمة بما لا يكاد يُحصى من الأخطاء النحوية واللغوية والإملائية وجاءت على غير نَسَقٍ في طبيعة ترجمتها وأسلوب كتابتها، حتى لتجد أن اسْمَي بَطَلَي أغاثا الشهيرَين، هيركيول بوارو والكابتن هيسْتِنْغْز، قد كُتبا بأشكال متنوعة وصور متباينة خلال الروايات،

وكأنهما مجموعة من الأشخاص المختلفين!

(٤) أما الطباعة فمأساة لا تقلّ حجماً عن مأساة الترجمة وتكاد تنافسها في السوء والرداءة! امتلأت الروايات بالأخطاء المطبعية التي لم يحفل بتصحيحها أحد، وصُفَّت أسوأَ صف ثم طُبعت على أسوأ ورق. وما زال أولئك «الناشرون...» يصوّرون طبعة عن طبعة حتى صارت مقاطعُ كاملةٌ منها مطموسةً مستعصيةً على القراءة لا تكاد تَبين حروفها وألفاظها.

(٥) ثم اجتهد «الناشرون...» فوضعوا لهذه الروايات أغلفة يظنّ معها من يراها أنها ليست سوى قصص فاضحة ماجنة، فكان أن أعرض عنها كثير من الناس الذين ظنوا أن صور أغلفتها تعبّر عن محتواها، وزهد في هذا الأدب الرفيع كثيرٌ من المتأدبّين.

(٦) وأباح هؤلاء «المترجمون...» لأنفسهم أن يتدخلوا في عناوين الروايات وتبويبها وترتيبها، فمسخوا العناوين الأصلية واستبدلوا بها ما ظنّوه أكثر إثارة أو أدعى لجذب القرّاء. واعتدوا على تبويب الروايات فأدخلوا بعض فصولها في بعض، وعلى ترتيب مجموعات القصص القصيرة فبعثروا ما كان منتظماً وشتتوا ما كان مجتمِعاً. كل ذلك بغير سبب واضح ولا تعليل مفهوم.

(٧) وأخيراً، كان العدوان الأكبر على أغاثا كريستي بأن نحلوا لها ما ليس -أصلاً- من كتابتها. وذلك أن الناشرين لمّا رأوا إقبال الناس على ما حمل اسمها قد طمعوا في مزيد من البيع ومزيد من الربح، فجاؤوا بروايات لا يُعرَف مؤلفوها فألحقوها بها ونسبوها إليها، حتى بلغ ما نُشر في السوق باسمها مئة وبضع

عشرة رواية، رغم أن كل ما كتبته من روايات بوليسية (وهي لها كتابات أخرى لم تُترجَم بَعدُ إلى العربية، كما سيأتي في ترجمتها الموجزة) ليست سوى ثمانين رواية لا غير!

* * *

فما الذي فعلناه نحن؟

اتصلنا بأصحاب الحقوق (ورثة المؤلفة) فعقدنا معهم اتفاقاً ووقّعنا عقداً ينصّ على الحقّ الحصري لنا بالطبعة العربية عبر العالم، ودفعنا مبلغاً كبيراً من المال مقابل هذا الاتفاق. بعد ذلك بدأنا بمشوار الترجمة الطويل الذي استغرق أكثر من عشر سنوات من العمل الشاق الدؤوب، المتعب والممتع في آنٍ معاً، ونفذّنا العمل بالأسلوب التالي:

(١) الترجمة على مرحلتين: يُترجَم العمل -أولاً- بالكامل، ثم يُراجَع مراجعة كاملة شاملة وكأنه ترجمة جديدة يقوم بها مترجم آخر. وكلا العملين تولاه مترجمون محترفون أصحاب خبرة وكفاية ودراية واسعة باللغتين، العربية والإنكليزية.

(٢) التحرير: وفي هذه المرحلة أُخضعت الترجمات لمراجعة كاملة دقيقة لكل نص مترجَم؛ أسلوبياً ولغوياً ونحوياً وإملائياً، مع العناية بالتفقير والترقيم (وضع العلامات من نقطة وفاصلة وسواهما). وتولّى هذا العملَ واحدٌ من أفضل المختصين في هذا المجال.

(٣) الصفّ والإخراج: وقد نُفِّذ هذا العمل لدى أفضل

مراكز الصف، وبُذل في الإخراج من الجهد غايته ليأتي على أفضل شكل ممكن. وكان أن وقع الاختيار على قَطْع الكتاب بالشكل الذي يجده القارئ بين يديه بعد استقراءٍ لميولِ كثير من القرّاء وُجد فيه أن الغالبية منهم يفضّلون -للروايات- هذا الحجم مقابل الحجم الكبير للكتب العلمية وكتب التراث.

(٤) ثم كانت المراجَعةُ بعد المراجَعة للنصّ النهائي المصفوف للتأكد من سلامته من أي خطأ أو سهو. كل ذلك ابتغاءَ الوصول إلى غاية الاتقان والحصول على أفضل عمل ممكن يطيقه الجهد البشري.

* * *

نعم، نحن لم نحقق كتباً عظيمة من كتب العلم ولم نترجم أعظم روائع الأدب العالمي، ولكن المرء مطالَبٌ -إذا عمل- بأن يتقن عمله؛ تلك واحدة من وصايا الشرع. ثم إن في أدب أغاثا كريستي من الجمال والرقيّ ما يستحق السعيَ إلى مثله -إذ يُترجَم- في النص المُعرَّب.

وأخيراً، فإن القارئ العربي الذي سيدفع قيمة هذه الكتب مالاً من جيبه ثم يصرف لقراءتها ساعات من وقته جديرٌ بالحصول على الأفضل. وهذا هو بالذات ما سعينا إليه في نهاية المطاف. فهل وُفِّقنا؟ نرجو أن نكون، وأنت -عزيزَنا القارئ- خيرُ حَكَم.

الأجيال

منهجنا في التحرير

أردنا لهذه الطبعة أن تخرج متميزةً في سلامة لغتها وصحة صياغتها وقوة أسلوبها، فبذلنا في تحريرها غاية الجهد وأقصى الاهتمام، واضطررنا -في سبيل ذلك- إلى مراجعة المادة المترجَمة مرةً بعد مرة، غيرَ عابئين بما نصرفه من وقت أو نبذله من طاقة، حتى وصلنا إلى ما نحسبه عملاً مقبولاً يرضى عنه القارئ ويُرضينا نحن عن أنفسنا.

وقد أحببنا أن نضع بين يدي القارئ هذه الملاحظات حول الأسلوب الذي اتبعناه في المراجعة والتحرير:

ففي اللغة: نَهَجنا اعتمادَ الفصاحة بلا تكلّف، فاعتمدنا من الألفاظ الدائرة على ألسنة الناس ما وافق العربية، وتجنبنا كل لفظ غريب. وفي هذا المقام كرّسنا ما اعتمده مجمع اللغة العربية ووافق عليه مما ورد في معجمه «الوسيط»، مثل «السَّلَطة» و«الكُشك»، ومثل قولهم: «سرَّحَ العامل» (بمعنى أخلاه وصرفه من عمله) و«أشَّرَ على الكتاب» (أي وضع عليه إشارة برأيه)، ومثل هذا كثير.

وقد تنبّهنا إلى بعض المفردات مما يُخلَط فيه بين المذكر

والمؤنث والمفرد والجمع، «فالمستشفى» مذكّر يُؤنَّث خطأً، و«الحماس» بالتذكير لفظ غير موجود في اللغة، بل هي «الحماسة» بالتأنيث، والرأس مذكّر لا يجوز تأنيثه (كما يشيع في الكتابات المصرية خاصة).

وكذلك تنبّهنا إلى بعض ما درَجَ على الألسنة والأقلام من مفردات غير صحيحة، فأبدلنا بها ما صحَّ وسُمِعَ عن العرب في هذا المقام، مثل قولهم: «خصّيصاً» والصواب «خصوصاً»، و«جاؤوا سويّةً» والصواب «جاؤوا معاً» لأن «سويّة» تعني الاستواء والعدل (كقولك: قسمت المال بينهم بالسوية)، و«المجوهرات»، وهو جمع غريب لم يُسمَع، والصحيح «الجواهر»، ومثل ذلك كثير.

وفي أسماء الشهور اخترنا كتابة الاسم العربي للشهر متبوعاً بالاسم الأعجمي بين قوسين، لأن من بلدان العرب (مع الأسف) من لا يعرف أهلها أسماءَ الشهور العربية، كأهل مصر وأكثر بلاد الجزيرة العربية وبلدان المغرب العربي كلها. فنكتبها بهذه الطريقة: حزيران (يونيو)، تشرين الثاني (نوفمبر)، إلخ.

وفي الإملاء: كتبنا «إذن» بالنون مطلقاً، عملت أو لم تعمل، وهو مذهب الأكثرين من أهل اللغة، وكان المبرّد يقول: "أشتهي أن أكوي يد مَن يكتب إذن بالألف، لأنها مثل أن ولن".

وفي بعض الألفاظ التي يجوز فيها الوصل والفصل (مثل: قلَّ ما) اخترنا الوصل مطلقاً فكتبناها: «قلّما» أسوةً بأمثالها، فقد اتفقوا على أن يكتبوا بالوصل «ممّا» (من ما) و«عمّا» (عن ما) و«إلاّ» (إن لا)، ومثلها: «إنّما» و«حيثما» و«كيفما»، إلخ.

واخترنا في لفظ «مئة» كتابتها من غير ألف، وهو رأيٌ لكثير من العلماء نقله السيوطي في «همع الهوامع» واعتمده عبد الغني الدقر في «معجم قواعد اللغة العربية»، قال: "وهو أقرب إلى الصواب". وفي عدد المئات (كثلاثمئة وخمسمئة، الخ) اخترنا كتابتها متصلةً غير منفصلة (لا كما يفعل بعضهم فيكتبونها: ثلاث مئة وخمس مئة، إلخ).

وحرصنا -في الطبع- على أن تُثبَت همزات القطع وتُحذَف همزات الوصل، وهو الصحيح في الكتابة. وحرصنا على عدم الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه كثيرٌ من الطابعين إذ يخلطون بين الألف المقصورة والياء المتطرفة في آخر الكلمة فينقطون الاثنتين أو يجردونهما كلتيهما من النقط، ومثل ذلك بالنسبة للتاء المربوطة والهاء المتطرفة. وحرصنا -أيضاً- على إثبات تنوين الفتح مطلقاً، وأثبتنا تنوين الضم والكسر في كل حالة خشينا فيها الالتباس.

وكذلك أثبتنا علامات الشَّكل الأصلية (الفتحة والضمة والكسرة والسكون) في كل حالة يُخشى فيها الالتباس، كالتفريق بين الفعل المبني للمجهول والمبني للمعلوم، وبين فعلَي المضارع والأمر، والمثنى وجمع المذكر السالم في حالَي النصب والجر، وغير ذلك. وحرصنا على إثبات الشَدّة -خصوصاً- في غير المواضع المدرَكة سليقةً، إذ هي دلالة على حرف محذوف.

أما علامات الترقيم (من نقطة وفاصلة وعلامة استفهام وغيرها)، فقد أولياناها كل عناية ممكنة، فهي -كما سمّاها بعض الأدباء- «علاماتٌ للتفهيم»، بها يتم المعنى ويَضِحُ المقصود.

واتّبعنا في تحديد العلامات ومواضعها الأصولَ التي اعتمدها أهل البحث واللغة، وعلى رأسهم العلامة أحمد زكي باشا في كتابه القيّم «الترقيم وعلاماته في اللغة العربية» مع بعض التصرف بما يوافق الأصول الحديثة المتّبَعة في عالَم النشر في هذا العصر.

وأخيراً، نظرنا في كتابة الحروف الأجنبية التي ليس لأصواتها مقابل في لغتنا العربية، فوجدنا القوم قد اختلفوا فيها اختلافاً كبيراً.

فأما الباء الشديدة (P) فقد كتبوها باء بثلاث نقاط، فاعتمدنا لها الباء العادية، إذ ليس من المتيسّر في الصف والطباعة توفير باء مثلثة، كما أن هذا الرسم غيرُ متفَقٍ عليه ولا هو معتمَد من جهة علمية ذات شأن كمجمع اللغة العربية. وكذلك فعلنا في الحرف (V) فكتبناه فاء عادية بنقطة واحدة.

أما الحرف الذي أثار أكبر اضطراب فهو الحرف (G) الذي يسمّونه «جيماً مصرية». فلأجل نطق أهل مصر الجيم بهذا الصوت اعتمد له كثيرون صورة الجيم، ولكن لو تأمّلت مَخرَج هذا الحرف ومَخرَج الجيم لوجدتهما متباعدَين تباعداً بيّناً، ولوجدت أن ما يقاربه في لغتنا مَخرجاً (في النطق) هي الغين والقاف والكاف. وقد كان هذا الصوت يُكتَب -فيما نُقل قديماً عن الفارسية- كافاً فوقها خط، وهي صورة لم يُتّفَق عليها فماتت واندثرت. وأهل الخليج يكتبون -اليوم- هذا الصوت قافاً، ويكتبه آخرون غَيْناً، وهو ما اخترناه لما وجدنا من قوة الدليل عليه. وانظر كيف كتبوا أكثر ما عرّبوا من أسماء البلدان كذلك فقالوا: «البرتغال» و«غانا» و«السنغال» و«بلغاريا» و«غرينتش»... وأمثال ذلك كثير كثير.

وهكذا كتبنا اسم مؤلفة هذه القصص «أغاثا» خلافاً لما كان شائعاً من كتابتها بالجيم. واستثنينا من الكتابة بالغَيْن فقط كلمة «إنكلترا» والنسبةَ إليها (إنكليز وإنكليزية) لشيوع كتابتها بالكاف بين المتعلمين وطلبة المدارس ولمناسَبة المخرج، فأثبتناها بالكاف كما هي هنا.

أما أكثر ما يربك فهو كتابة الحروف الصوتية الطويلة في الأسماء الأجنبية. ففي العربية ثلاثة أصوات طويلة لا غير: الألِف والواو والياء، أما في الإنكليزية فتوجد ثمانية أصوات طويلة: الألف المرقَّقة (كما في: cat)، والألف المفخَّمة (كما في: car)، والألف الممالة (كما في: care)، والواو المشبعة (كما في: boot)، والواو الممالة المرقَّقة (كما في: bone)، والواو الممالة المفخّمة (كما في: orange)، والياء المشبعة (كما في: me)، والياء الممالة (كما في: urgent). وقد قربنا -في الرسم العربي- كل أنواع الألف فكتبناها ألفاً، وكل أنواع الواو فكتبناها واواً، ونوعَي الياء فكتبناهما ياءً، ما عدا الألف الممالة التي اجتهدنا في كتابتها ياء (كما في Hastings، صاحب بوارو الشهير في كثير من الروايات، كتبناه هيستِنْغْز).

هذا ما اجتهدنا فيه وذهبنا إليه، آملين أن يكون اجتهادنا صحيحاً وأن نكون قد هُدينا فيه إلى الصواب، فيكون العمل الذي نقدمه إلى قرائنا سليماً صحيحاً معافى من العيوب. والله المستعان.

المحرّر

* * *

المؤلّفة في سطور

تُعتبَر أغاثا كريستي أعظمَ مؤلفة في التاريخ من حيث انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها بليونَي (ألفَي مليون) نسخة!

وُلدت أغاثا كريستي في بلدة توركي بجنوب إنكلترا عام ١٨٩٠، وتوفيت عام ١٩٧٦ وعمرها نحو خمسة وثمانين عاماً. لم تذهب أغاثا قطّ إلى المدرسة، بل تلقت تعليمها في البيت على يد أمها التي دفعتها إلى الكتابة وشجعتها عليها في وقت مبكر من حياتها، كما تخبرنا هي نفسها، فحينما كانت نزيلة فراشها تتعافى من مرضٍ ألمّ بها سألتها أمها: "لماذا لا تكتبين قصة؟". أجابت فوراً: "لا أظن أنني قادرة على ذلك"، فقالت أمها: "بلى، تستطيعين؛ جرّبي وسترَين".

عندئذ كتبت أغاثا كريستي أول رواية لها وعنوانها «ثلوج على الصحراء»، وهي رواية رفضها الناشرون فلم تُنشَر قط. أما الرواية الثانية «القضية الغامضة في ستايلز» (التي ظهر فيها بوارو

للمرة الأولى) فقد أدخلتها إلى عالم الكتابة الرحيب، وذلك حين نُشرت -أخيراً- بعدما رفضها ستة من الناشرين، وبعدما حبسها الناشر السابع في أدراجه لمدة ثمانية عشر شهراً متردداً في نشرها!

* * *

عاشت أغاثا طفولة سعيدة، إذ كانت صغرى ثلاثة أولاد لأبٍ مرِح مُحبٍّ للحياة وأم ذكية تحب الطموح، وقد ظلّت -حتى آخر حياتها- تذكر بيتها الذي وُلدت ونشأت فيه بكثير من الشوق والحنين. ولكن هذه السعادة لم تَدُمْ، فقد توفي والدها وهي في الحادية عشرة مخلّفاً لأسرته مشكلات مادية لم تلبث أن أدخلت أغاثا في عالم المسؤولية في ظروف صعبة.

وحينما قامت الحرب العالمية الأولى تطوعت أغاثا للعمل في أحد المستشفيات ممرّضةً تساعد جرحى الحرب. وفي هذا المستشفى عملت بتحضير الأدوية وتركيبها وتعرفت إلى السموم المختلفة، وهو الأمر الذي كانت له فائدة عظيمة في كتاباتها اللاحقة عن الجرائم.

وفي تلك الفترة، في عام ١٩١٤، تزوجت طيّاراً شاباً اسمه آرشيبالد كريستي، ولكنها انفصلت عنه عام ١٩٢٨ بعد موت والدتها بقليل. ولم تلبث أن تزوجت مرة أخرى عام ١٩٣٠ عالم الآثار الشهير السير ماكس مالُوانْ، وهو الذي أمضت برفقته سنوات من عمرها في المشرق (في العراق وسوريا ومصر) فجاءت أحداث عدد من رواياتها لتقع في هذه البلاد، مثل: «موت فوق النيل» و«لقاء في بغداد» و«جريمة في بلاد الرافدين» و«موعد مع

الموت». وحينما سافرت على متن قطار الشرق السريع خرجت بواحدة من أشهر رواياتها: «جريمة في قطار الشرق».

تحدثت أغاثا كريستي عن نفسها فقالت: "لو سُئلت عن ميولي لأجبت بأنني أحب كل طعام جيد، وأكره الكحول وكل ما يدخل في صنعه الكحول. حاولت التدخين فوجدته بغيضاً ولم أجد ما يغريني بالتعلق به. أحب الأزهار، وأعشق البحر، وأهوى السفر ولا سيما في بلدان الشرق الأدنى. أحب المسرح وأكره الأفلام الناطقة إذ أعجز عن متابعتها، وأكره الإذاعة وضوضاءها، وأبغض المدن وازدحامها".

أما رواياتها فتتميز بدقة حَبْكتها وترابط أحداثها ومنطقية تسلسلها، تغور فيها في أعماق النفوس البشرية محلِّلةً كوامنَها باحثةً عن دوافعها بعبقرية فذة وبصيرة نافذة. وهي قصص «نظيفة» بريئة من إثارة المشاعر والغرائز وليس فيها ما يُخجِل أو يَسوء. وقد حرصت على أن تقول لنا فيها دائماً: «لا بدّ أن ينتصر الخير»، و«الجريمة لا تفيد».

* * *

أشهر أبطالها هيركيول (هرقل) بوارو، والآنسة ماربل. أما بوارو فقد «وُلد» عام ١٩٢٠ في «قضية ستايلز الغامضة»، ثم استمرّ بالظهور في روايات لاحقة لمدة خمس وخمسين سنة. وهو محقق بلجيكي وشرطي متقاعد أهمّ ما يميّزه ذكاؤه الخارق (الناتج عن «الخلايا الرمادية الصغيرة» في دماغه!) وشارباه العظيمان اللذان ليس لهما مثيل في بريطانيا! وغالباً ما يرافقه في تحقيقاته صاحبه

الشهير، الضابط المتقاعد، الكابتن هيستِنْغْز، الذي يتميز بطبيعته الطيبة وذكائه المتواضع وحبه الكبير لبوارو.

وأما الآنسة ماربل فهي عانس عجوز ذات ذكاء بالغ وإدراك عجيب، وتتمتع بقدرة فذّة على الملاحظة والتحليل وفهم عميق للنفس البشرية بحيث تكشف أسرار الجرائم مستفيدةً من شبكة واسعة من الأصدقاء والمعارف والعلاقات الاجتماعية الناجحة.

* * *

كتبت أغاثا كريستي من روايات وقصص الجريمة سبعاً وستين رواية طويلة وعشرات من القصص القصيرة التي نُشرت في ثلاث عشرة مجموعة، وبذلك يكون عدد ما نُشر لها من الأعمال البوليسية ثمانين كتاباً. كما كتبت ستَّ روايات طويلة رومَنْسيّة باسم مستعار هو «ماري ويستماكوت»، وست عشرة مسرحية أشهرها «مصيدة الفئران» التي تُعتبر أطول المسرحيات عرضاً في التاريخ، إذ ما زالت تُعرَض في لندن (دون انقطاع تقريباً) منذ عام ١٩٥٢.

أما سيرة حياتها التي كتبتها قبيل وفاتها فقد نُشرت بعد موتها بعام واحد، وسوف نقدّم ترجمتها إلى قرائنا (مع كتاب ذكرياتها الآخر «أخبريني كيف تعيشين» الذي نشرته عام ١٩٤٦ وسردت فيه ذكرياتها عن رحلاتها مع زوجها) حيث ستكون هذه هي المرة الأولى التي يُترجم فيها هذان الكتابان إلى اللغة العربية.

* * *

كلب الموت

سمعت بالقضية لأول مرة من المراسل الصحفي الأمريكي ويليام رايان. كنت أتناول معه العشاء في لندن عشيّةَ عودته إلى نيويورك، وحدث أن ذكرتُ أنني ذاهب إلى فولبريدج في صباح اليوم التالي، فرفع بصره وقال بحدّة: فولبريدج، في كورنوول؟

والحقيقة أنك لا تكاد تجد شخصاً واحداً من بين كل ألف يعرف أن في كورنوول بلدة اسمها فولبريدج. إنهم يأخذونها دائماً على أن المقصود بها هي فولبريدج التي في هامبشاير، لذلك فقد أثارت معرفةُ رايان فضولي، فقلت: نعم، هل تعرفها؟

اكتفى بالقول إن بوسعي أن أراهن على ذلك، ثم سألني إن كنت أعرف بيتاً هناك اسمه «تريرني».

ازداد اهتمامي بالموضوع وقلت له: أعرفه جيداً. بل إنني ذاهب إليه في الحقيقة، فهو بيت شقيقتي.

قال ويليام رايان: حسناً، هذا أمر مفاجئ حقاً!

أخبرته أن عليه أن يكفّ عن إلقاء الملاحظات المبهَمة وأن يوضح ما يقوله، فقال: حسناً، لكي أصنع ذلك عليّ العودة إلى تجربتي في بداية الحرب.

تنهدت، فالأحداث التي أرويها الآن وقعت عام ألف وتسعمئة

وواحد وعشرين، وآخر ما يمكن للمرء أن يرغب به هو أن يذكّره أحدٌ بالحرب (وأحمد الله على أننا بدأنا ننسى أمرها) كما أنني كنتُ أعرف أن وليام رايان يميل إلى الإطالة الفظيعة عند رواية تجاربه في الحرب. ولكن لم يكن من مجال لوقفه الآن.

قال: في بداية الحرب كنت في بلجيكا كما تعلم، أتجول فيها لصالح صحيفتي. وكانت هناك قرية صغيرة (سأسميها القرية س)، قرية صغيرة جداً بالفعل، ولكن كان فيها منتجع أشبه بالمشفى النفسي تقيم فيه مجموعة من السيدات اللاتي يقضين فترة من النقاهة بسبب أزمات أو مشكلات نفسية. وكانت هذه البلدة الصغيرة في طريق تقدم جحافل الألمان، ووصلت قوات الألمان...

تحركت متململاً، فرفع ويليام رايان يده يطمئنني وقال: لا بأس؛ هذه ليست قصة لفظاعة ارتكبها الألمان. ربما كان ممكناً أن تكون على هذا النحو، ولكنها ليست هكذا. والحقيقة أن الأمر جرى بالعكس تماماً. جاء الجنود الألمان إلى المشفى... دخلوا هناك، وتفجر المكان كله.

قلت وقد جفلتُ قليلاً: آه!

- أليس هذا غريباً؟ أظن أن الجنود الألمان كانوا يحتفلون ويتجولون في المكان ومعهم أسلحتهم، ولكن لا أحسب أنه كان معهم متفجرات من ذلك النوع الخطير، فهم ما كانوا ليحملوا المتفجرات الشديدة. حسناً، ها أنا ذا أسألك: ماذا يمكن أن تعرف مجموعة من السيدات عن المتفجرات الشديدة الانفجار؟

وافقته قائلاً: الأمر غريب.

– كنت مهتماً بسماع رواية الفلاحين للقصة. وكانوا قد أعدوا قصة جاهزة قاطعة، فبالنسبة لهم كانت معجزة عصرية مدوية من الطراز الأول. ويبدو أن واحدة من المريضات قد حازت على سمعة كبيرة... كامرأة ذات قدرات خارقة. كانت تنتابها حالات غيبوبة وترى رُؤىً، وهم يظنون أنها هي التي حققت تلك المعجزة. لقد استنزلت صاعقة لكي تقضي على الألماني الفاسق، وقد قضت عليه تماماً ودمرت كل شيء آخر في مرماها. كانت تلك معجزة كبيرة!

ثم أكمل رايان: لم أتبين حقيقة الأمر لأنني لم أملك الوقت الكافي لذلك. ولكن المعجزات كانت مادة رائجة في ذلك الوقت، فكتبتُ قصة الخبر وأضفتُ إليه شيئاً من العاطفية، ثم أرسلت التقرير إلى صحيفتي. وقد استُقبل بقبول حسن في الولايات المتحدة، إذ كانوا يحبون مثل هذه الأخبار في ذلك الوقت. ولكنني أخذت أهتم بالموضوع وأنا أكتب التقرير، ولا أعرف إن كنتَ ستفهم هذا أم لا. شعرت أنني أرغب بمعرفة ما حدث حقيقة. ولم يكن في المكان نفسه ما يمكن رؤيته، فقد بقي حائطان كانا ما يزالان واقفَيْن وعلى أحدهما شيء من أثر البارود الأسود على شكل كلب كبير. وكان الفلاحون الذين يسكنون في المنطقة خائفين جداً من تلك العلامة، وقد سموها «كلب الموت»، وما كانوا ليمروا من ذلك الطريق بعد حلول الظلام. إن الخرافات تثير الاهتمام دائماً. وقد أحسست برغبة في رؤية المرأة التي صنعت تلك الأعجوبة، ولم تكن قد ماتت، بل ذهبت إلى إنكلترا مع مجموعة من اللاجئين الآخرين. وقد تجشمتُ عناء تعقب آثارها لأكتشف أنها أُرسلت إلى منزل تريرني في فولبريدج في كورنوول.

أومأت برأسي وقلت: كانت أختي تؤوي في بيتها كثيراً من اللاجئين البلجيكيين في بداية الحرب... نحو عشرين لاجئاً.

- حسناً، لقد أردتُ دائماً زيارة المرأة لو توفر لديّ وقت، فقد أردتُ سماع روايتها الخاصة عن الكارثة. وبعد ذلك نسيت هذا الأمر بسبب مشاغلي الكثيرة، وكانت كورنوول مكاناً منعزلاً بعيداً بعض الشيء. والواقع أنني كنتُ قد نسيت الأمر كله إلى أن ذكرتني به عندما ذكرتَ فولبريدج قبل قليل.

قلت: يجب أن أسأل شقيقتي، فلعلها سمعت شيئاً عن الأمر. لقد أُعيد جميع اللاجئين البلجيكيين إلى بلادهم منذ مدة طويلة بالطبع.

- هذا طبيعي. ومع ذلك، لو كانت أختك تعرف أي شيء فسأكون مسروراً لو أبلغتني به.

قلت متحمساً: سأفعل بالطبع.

وانتهى الأمر عند تلك النقطة.

* * *

عادت هذه القصة إلى ذاكرتي في اليوم التالي لوصولي إلى تريرني. كنت أشرب الشاي مع أختي على المصطبة الأمامية، فقلت لها: كيتي، ألم يكن بين البلجيك الذين أقاموا عندك امرأة مصابة بمرض نفسي ما؟

- أتعني السيدة ماري أنجيليك؟

قلت بحذر: ربما هي. أخبريني عنها.

- آه، يا إلهي! كانت امرأة خارقة للطبيعة. إنها ما تزال هنا.

- ماذا؟! في البيت؟

- لا، لا، بل في القرية. الدكتور روز... هل تذكر الدكتور روز؟

هززت رأسي بالنفي وقلت: لست متأكداً. أذكر رجلاً عجوزاً في الثالثة والثمانين من عمره.

- ذاك هو الدكتور ليرد. آه، لقد مات. ولم يمرّ على وجود الدكتور روز هنا إلّا بضع سنوات فقط. إنه صغير بالسن وهو متعلق جداً بالأفكار الجديدة، وقد أولى السيدة ماري أنجيليك جُلّ اهتمامه. كانت تصاب بهلوسات وأشياء... وكان واضحاً أنها مثيرة جداً للاهتمام من وجهة النظر الطبية. مسكينة، لم يكن عندها مكان تذهب إليه، وكانت -برأيي- مخبولة تماماً، غير أنها تثير الإعجاب بطريقة ما. وكما قلت: لم يكن عندها مكان تذهب إليه، وكان الدكتور روز لطيفاً جداً عندما وجد لها مسكناً في القرية. أظن أنه يكتب بحثاً علمياً عنها.

سكتت ثم أضافت: ولكن ماذا تعرف عنها؟

- لقد سمعتُ قصة غريبة.

سردتُ لها القصة كما سمعتها من رايان. وقد اهتمت كيتي أشد الاهتمام وقالت: إنها تبدو من النوع الذي يمكن أن يدمرك،

إذا كنتَ تدرك ما أعنيه!

قلت وقد ازداد فضولي: أظن أنني يجب أن أرى تلك المرأة.

– نعم، افعل؛ أريد أن أعرف رأيك بها. اذهب وقابل الدكتور روز أولاً. لماذا لا تتمشى إلى القرية بعد تناول الشاي؟

قبلت هذا الاقتراح. وقد وجدت الدكتور روز في بيته وقدمت له نفسي، وبدا شاباً مرحاً، ومع ذلك كان في شخصيته شيء نفّرني. كانت شخصيته أقوى من أن تكون محبوبة تماماً.

وفي اللحظة التي ذكرت فيها السيدة ماري أنجيليك تصلب منتبهاً، وكان واضحاً أنه مهتم كثيراً بالأمر. سردت له رواية رايان للحادث، فقال متأملاً: آه! هذا يوضح كثيراً من الأشياء.

رفع بصره نحوي بسرعة وأكمل قائلاً: إن القضية مثيرة جداً بالفعل. لقد وصلت المرأة إلى هنا وكان واضحاً أنها تعاني من صدمة نفسية شديدة، وكانت أيضاً في حالة من الانفعال العقلي الكبير وتعاني من هلوسات مرعبة. إن شخصيتها غريبة جداً. لعلك ترغب في مرافقتي لزيارتها؟ إنها تستحق الزيارة فعلاً.

وافقته بكل ترحيب، وانطلقنا معاً.

كان هدفَنا بيتٌ ريفي صغير على أطراف القرية. إن فولبريدج مكان ذو طبيعة خلابة، وهي تقع عند مصب نهر فول، وغالبيتها على الضفة الشرقية تقريباً، أما الضفة الغربية فهي منحدرة جداً ولا تصلح للبناء، رغم وجود قليل من البيوت المعلقة على جانب المنحدر الصخري هناك. وكان بيت الطبيب نفسه مبنياً عند طرف

حافة المنحدر الصخري في الجانب الغربي، ومن ذلك البيت تنظر أسفل منك إلى الأمواج الكبيرة التي تصطدم بالصخور السوداء. أما البيت الذي نحن بصدد زيارته فيقع في منطقة داخلية لا يمكن رؤية البحر منه.

أوضح الدكتور روز: ممرضة المنطقة تعيش هنا. لقد رتبت إقامة السيدة ماري أنجيليك معها في البيت، والجيد في هذا أنه يجعلها أيضاً تحت إشراف طبي محترف.

سألته سؤالاً فضولياً: أهي طبيعية تماماً في سمتها؟

ردّ وهو يبتسم: يمكنك أن تحكم على ذلك بنفسك حالاً.

كانت ممرضة المنطقة ذات جسم صغير ممتلئ، وكانت على وشك الخروج على دراجتها الهوائية عندما وصلنا.

صاح الطبيب: مساء الخير أيتها الممرضة، كيف مريضتك؟

- إنها كعادتها يا حضرة الطبيب؛ جالسة هناك وهي تلف يديها وذهنها شارد بعيداً. إنها لا تجيبني في أكثر المرات التي أتكلم فيها معها، مع أنها -بالنسبة لهذه النقطة- لا تفهم الكثير من الإنكليزية حتى الآن.

أومأ روز برأسه، وعندما انطلقت الممرضة بدراجتها بعيداً اتجه إلى باب البيت ودقّ بقوة ثم دخل.

كانت السيدة ماري أنجيليك مسترخية على مقعد طويل قرب النافذة، وعندما دخلنا التفتت برأسها إلينا. كان وجهها غريباً شاحباً

وكأنه شفاف، بعينين واسعتين جداً، وقد بدا في تلكما العينين شيء من لانهائية المآسي.

قال الطبيب بالفرنسية: مساء الخير يا سيدتي. اسمحي لي أن أقدم لك صديقي السيد أنستروثر.

انحنيتُ لها فيما مالت هي برأسها بابتسامة باهتة.

سألها الطبيب وهو يجلس بجانبها: وكيف حالك اليوم؟

- كالمعتاد، بنفس الحال.

سكتت قليلاً ثم أكملت: لا شيء يبدو لي حقيقياً. هل هذه التي تمر عليّ أيامٌ أم أشهر أم... سنوات؟ لا أكاد أعرف. أحلامي وحدها هي التي تبدو حقيقية بالنسبة لي.

- أما زلت تحلمين كثيراً إذن؟

- دائماً، دائماً و... هل تفهم؟ الأحلام تبدو حقيقية أكثر من الحياة.

- هل تحلمين ببلدك... ببلجيكا؟

هزت رأسها نافية وقالت: لا، بل أحلم ببلد لم يوجد قط... أبداً. أنت تعرف هذا أيها الطبيب؛ لقد أخبرتك بذلك مراراً.

سكتت، ثم قالت فجأة: ولكن لعل هذا الرجل الذي معك طبيب هو الآخر. أتراه طبيباً لأمراض الدماغ؟

قال روز يطمئنها وهو يبتسم: لا، لا.

ولاحظتُ -عندما ابتسم- كيف كانت أنيابه مدببة طويلة بشكل غريب، وخطر لي أن في هذا الرجل شيئاً من صفات الذئب.

أكمل قائلاً: اعتقدت أنك ربما تكونين مهتمة بمقابلة السيد أنستروثر. إنه يعرف أشياء عن بلجيكا، وقد سمع -مؤخراً- بعض الأخبار عن المنتجع الذي كنت تعيشين فيه.

التفتت إليّ وقد احمر خدّاها قليلاً، فأسرعتُ في الإيضاح: لا يوجد شيء مهم في الحقيقة، لكني كنت أتناول طعام العشاء قبل فترة مع صديق كان يصف لي الجدران المهدمة للمكان.

- فهي مهدمة إذن؟!

كانت صيحة تعجّب هادئة نطقتها لنفسها أكثر من نطقها لنا. ثم سألتني مترددة وهي تنظر إليّ مرة أخرى: أخبرني يا سيد، هل أخبرك صديقك كيف تهدمت؟

قلت: "لقد فُجِّرت". ثم أضفت: الفلاحون يخافون من المرور من ذلك الطريق في الليل.

- ولماذا يخافون؟

- بسبب علامة سوداء على حائط مهدم. لديهم خوف خرافي منها.

مالت إلى الأمام وقالت: أخبرني يا سيد، بسرعة... بسرعة... أخبرني! ما شكل تلك العلامة؟

- إنها على شكل كلب ضخم، والفلاحون يسمونه «كلب الموت».

- آه!

تفجرت من شفتيها صرخة حادة، ثم قالت: إذن هذا صحيح... صحيح. كل ما أتذكره صحيح. إنه ليس كابوساً مرعباً. لقد حدث فعلاً! لقد حدث!

سألها الطبيب بصوت منخفض: ما الذي حدث يا سيدتي؟

التفتت إليه متلهفة وقالت: **لقد تذكرت**. هناك على الدرج، تذكرت. تذكرت كيف حدث ذلك. لقد استخدمت القوّة التي كنت معتادة على استخدامها. وقفت على درج المبنى وأمرتهم أن لا يتقدموا أكثر. قلت لهم أن يغادروا بسلام. لم يصغوا إليّ، تقدموا رغم أنني حذرتهم. وهكذا...

مالت إلى الأمام وأشارت بيدها إشارة غريبة وهي تقول: ولذلك أطلقت عليهم كلب الموت!

ثم استندت إلى ظهر المقعد وجسمها كله يرتعد وعيناها مغلقتان، فنهض الطبيب وأحضر كوباً من خزانة، فملأ نصفه بالماء وأضاف إليه قطرة أو قطرتين من زجاجة صغيرة أخرجها من جيبه، ثم أخذ الكوب إليها وقال بلغة الآمر: اشربي هذا.

أطاعته كما لو كان ذلك آلياً. بدت عيناها بعيدتين وكأنهما تتأملان رؤىً داخلية خاصة بها، ثم قالت: إذن كل شيء صحيح، كل شيء. «مدينة الدوائر»، «شعب الكرستال»... كل شيء. كله صحيح.

قال روز: يبدو كذلك.

كان صوته منخفضاً ومهدئاً، وواضح أن القصد منه تشجيع

حبل أفكارها وليس تعكير سيره. قال: أخبريني عن المدينة. أظنك قلت «مدينة الدوائر»؟

ردّت عليه وهي شاردة الذهن وبطريقة آلية: نعم... كانت هناك ثلاث دوائر.

- وفي المركز؟

سحبت نفسها بحدة وتحول صوتها إلى نبرة خوف يصعب وصفها وهي تقول: بيت الكرستال!

وهي تنفث هذه الكلمات رفعت يدها اليمنى إلى جبينها، ودار إصبعها وكأنه يتابع رسماً معيناً هناك. وبدا أن جسمها يزداد تصلباً، وعيناها مغمضتان، ثم ترنحت قليلاً. وفجأة انتصبت في جلستها مع اهتزازة في جسدها وكأنها قد استيقظت بغتة، ثم قالت مرتبكة: ما الأمر؟ ما الذي كنتُ أقوله؟

قال روز: لا شيء. أنت مرهقة وتحتاجين إلى الراحة؛ سوف نتركك.

بدت مبهورة قليلاً فيما كنّا نغادر بيتها. وقال روز ونحن في الخارج: حسناً، ما رأيك في هذا؟

ثم رشقني بنظرة جانبية حادة، فقلت ببطء: أظن أن عقلها مشوش تماماً.

- أهكذا بدا لك الأمر؟

- لا. الحقيقة أنها كانت... مقنعة بطريقة غريبة. عندما كنت

أستمع إليها كان لديّ انطباع بأنها صنعت فعلاً ما زعمت أنها صنعته، أي أنها نفذت معجزة هائلة ما. إن إيمانها بأنها فعلت ذلك يبدو صادقاً بما فيه الكفاية. هذا هو سبب...

- هذا هو سبب قولك إن عقلها لا بد أن يكون مشوشاً. صحيح تماماً، ولكن ناقش المسألة الآن من زاوية أخرى. افترض أنها صنعت تلك المعجزة فعلاً... افترض أنها دمّرت مبنى وقتلت عدة مئات من البشر.

قلت وأنا أبتسم: بمجرد ممارستها للإرادة وحدها؟

- ما كنتُ لأعبر عن الأمر بهذا النحو. سوف توافقني على أن شخصاً واحداً يمكنه إهلاك حشدٍ كبير من الناس بضغطة على مفتاح يتحكم بشبكة من الألغام.

- نعم، لكن هذا عمل آلي.

- صحيح، هذا عمل آلي، ولكنه في جوهره تسخير وتحكم بقوى طبيعية. إن العاصفة الرعدية ومحطة توليد الطاقة يعتبران أمراً واحداً من الناحية الجوهرية.

- نعم، ولكن حتى نتحكم بالعاصفة الرعدية علينا استخدام وسائل آلية.

ابتسم روز وقال: حسناً، في الطبيعة مواد في النبات يستطيع الإنسان أن يوجدها اصطناعياً وكيميائياً في المختبر.

- حسناً؟

- أريد أن أقول إن طريقتين يمكن أن توصلا إلى نفس النتيجة. إن طريقتنا هي الطريقة الصناعية، ولكن ربما وُجدت طريقة أخرى. النتائج غير العادية التي يصل إليها النسّاك الهنود -على سبيل المثال- لا يمكن تفسيرها بأي طريقة سهلة. الأشياء التي نسميها خارقة للطبيعة ما هي إلّا أشياء طبيعية لم تفهمها القوانين بعد.

سألته وقد فتنني الحديث: ماذا تعني؟

- أقصد أنني لا أستطيع استبعاد احتمال أن يكون الكائن البشري قادراً على الاستفادة من قوة تدميرية هائلة لتحقيق أهدافه. وقد تبدو لنا الوسائل التي تم فيها تحقيق هذه الأهداف خارقة للطبيعة، لكنها ليست كذلك في الحقيقة.

حدقت إليه، فضحك وقال لاهياً: إنه تخمين، هذا كل ما في الأمر. أخبرني، هل لاحظت إشارة عملتها بيدها عندما ذكرت بيت الكرستال؟

- لقد وضعت يدها على جبينها.

- بالضبط، ورسمت دائرة هناك. سأخبرك شيئاً مثيراً للاهتمام يا سيد أنستروثر. عندما ترددت كلمة كرستال كثيراً في تفكير مريضتي أجريت تجربة. استعرتُ كرة كرستال من أحد الحواة وأظهرتها لها ذات يوم على نحو مفاجئ لأختبر رد فعل مريضتي عليها.

- حسناً؟

- حسناً. كانت النتيجة غريبة جداً وموحية. لقد تصلب جسدها كله. حدقت إلى الكرة وكأنها لا تصدق ما تراه عيناها، ثم جثت على

ركبتيها أمامها وهمست ببضع كلمات... وأغمي عليها.

- غريب!

- نعم، أليس كذلك؟ والآن إلى الشيء الغريب الثاني. عندما استيقظت من غيبوبتها كانت قد نسيت الأمر كله. أظهرتُ لها كرة الكرستال وسألتها إن كانت تعرف ما هي. ردّت بأنها تظن أنها كرة كتلك التي يستخدمها العرافون. سألتها إن كانت قد رأت مثلها من قبل، فردّت قائلة: "أبداً أيها الطبيب". لكني رأيت الحيرة في عينيها، فسألتها: "ما الذي يزعجك يا سيدتي؟" فردّت قائلة: "أمر غريب جداً. لم أرَ كرة كرستال من قبل... ومع ذلك يبدو لي أنني أعرفها جيداً. هناك شيء... لو أنني أستطيع فقط أن أتذكره...". بدا واضحاً أن بذلها الجهد في محاولة للتذكر كان مسألة مرهقة جداً لها، لذلك منعتها من الاستمرار في التفكير. كان هذا قبل أسبوعين، وقد كنت أنتظر فرصتي الملائمة. غداً سأباشر تجربة أخرى.

- باستخدام الكرستال؟

- نعم، باستخدام الكرستال. سأجعلها تتفرس فيها، وأعتقد أن النتيجة ستكون مثيرة للاهتمام.

سألته بفضول: ما الذي تتوقع الحصول عليه؟

كانت الكلمات عادية لاهية، ولكنها أحدثت نتيجة غير متوقعة. تصلب روز واحمرّ وجهه وتغير سمته بشكل غير معقول عندما تكلم. فقد غدا سمتُه أكثر رسمية وأكثر مهنية. قال: إنني أهتم بإلقاء الضوء على أمراض عقلية معينة لم تُفهَم تمام الفهم، والسيدة ماري أنجيليك

موضوع دراسة مثيرة لأشد الاهتمام.

أيعني هذا أن اهتمام روز مجرد اهتمام مهني؟ نقطة تثير التساؤل.

سألته: هل تمانع لو جئت معك مرة أخرى؟

ربما كان ذلك محض خيال مني، ولكن يُخيَّل إليّ أنني لمحتُ بعض التردد منه قبل أن يجيبني. وانتابني حدس مفاجئ بأنه لم يكن يريدني.

قال: "بالتأكيد؛ لا أرى وجود أي مانع". ثم أضاف: أظن أنك لن تبقى هنا مدة طويلة، أليس كذلك؟

- حتى بعد غدٍ فقط.

أتصور أن إجابتي هذه أرضته، فقد انفرجت أساريره وبدأ يتحدث عن بعض التجارب الحديثة التي أجريت على الخنازير الغينية.

* * *

التقيت بالطبيب بعد ظهر اليوم التالي بناء على موعد، وذهبنا معاً إلى السيدة ماري أنجيليك. كان الطبيب هذا اليوم في منتهى الود، وحسبتُ أنه كان حريصاً على إزالة الانطباع الذي تركه بالأمس.

قال ضاحكاً: أرجو أن لا تأخذ كلامي الذي قلته على محمل الجد. لا أحب أن تحسبني من هواة العلوم الغريبة الغامضة، فإن أسوأ ما فيّ هو أن لديّ ضعفاً شديداً يدفعني دوماً لمحاولة إثبات وجود قضية ما.

- حقاً؟

قال: "نعم، وكلما كانت القضية غريبة أكثر كلما أحببتها أكثر". ثم ضحك كرجل يضحك بسبب نقطة ضعف محببة لديه.

عندما وصلنا إلى البيت الريفي كانت الممرضة تريد استشارة روز في شيء، لذلك بقيت وحدي مع السيدة ماري أنجيليك.

رأيتها تنظر إليّ نظرة إمعان، ثم ما لبثت أن قالت: أخبرتني الممرضة الطيبة أنك أخو السيدة اللطيفة التي تسكن في البيت الكبير الذي أحضروني إليه عندما جئت من بلجيكا.

- نعم.

- كانت كريمة جداً معي؛ إنها طيبة.

سكتت وكأنها تلاحق قطار أفكارها، ثم قالت: السيد الطبيب... أهو طيب هو الآخر؟

ارتبكتُ قليلاً وقلت: نعم. أعني... أظنه كذلك.

- آه!

سكتت ثم قالت: من المؤكد أنه كان لطيفاً جداً معي.

- أنا واثق من ذلك.

رفعت بصرها إليّ بحدة وقالت: يا سيد... أنت... أنت الذي تتكلم معي الآن... هل تعتقد أنني مجنونة؟

- يا سيدتي، إن مثل هذه الفكرة لم...

هزت رأسها ببطء وهي تقاطع احتجاجي: هل أنا مجنونة؟

لا أعرف. الأشياء التي أتذكرها... الأشياء التي أنساها...

ثم تنهدَتْ، وفي تلك اللحظة دخل روز الغرفة. حيّاها بابتهاج وأوضح لها ما يريد منها فعله. قال: إن لبعض الناس موهبة في رؤية أشياء في كرة الكرستال، وأظن أنك تملكين هذه الموهبة يا سيدتي.

بدت حزينة وقالت: لا، لا... لا أستطيع ذلك؛ إن محاولة معرفة المستقبل لا تجوز.

فوجئ روز، فقد كانت تلك وجهة نظر دينية لم يحسب لها حساباً. غيّر موضوع الحديث بطريقة ذكية وقال: لا ينبغي للمرء أن يركز نظره على المستقبل؛ أنت محقة في ذلك. أما النظر إلى الماضي فأمر مختلف.

- الماضي؟

- نعم؛ في الماضي أشياء كثيرة غريبة: ومضات من الذكرى تعود للمرء... تُشاهَد لحظة واحدة ثم تذهب ثانية. لا تسعي لرؤية شيء في كرة الكرستال طالما أن هذا غير مسموح به بالنسبة لك، إنما خذيها في يديك وأمعني النظر إليها. انظري إليها نظرة عميقة، نعم... أكثر عمقاً... أكثر عمقاً أيضاً. هل تتذكرين؟ أنت تتذكرين. إنك تسمعينني وأنا أتحدث إليك ويمكنك الرد على أسئلتي. هل تسمعينني؟

كانت السيدة ماري أنجيليك قد أخذت كرة الكرستال كما طلب منها وحملتها بمهابة غريبة، وعندما حدقت إليها أصبحت عيناها خاليتين من التعبير وتدلى رأسها، وبدت وكأنها نائمة.

أخذ الطبيب الكرة منها بلطف ووضعها على الطاولة. ورفع طرف جفن السيدة النائمة ثم جاء وجلس بجانبي قائلاً: يجب أن ننتظر حتى تستيقظ. لن يطول ذلك كثيراً حسبما أتصور.

كان محقاً، فبعد انقضاء خمس دقائق تحركت السيدة ماري أنجيليك ففتحت عينيها بطريقة حالمة وقالت: أين أنا؟

- أنت هنا... في بيتك. لقد نمتِ قليلاً فحلمت، أليس كذلك؟

أومأت برأسها وقالت: بلى؛ لقد حلمت.

- هل حلمت بالكرستال؟

- نعم.

- أخبرينا عنه.

- ستعتقد أنني مجنونة يا حضرة الطبيب، فقد تخيلت وجود حارس للكرستال مات من أجل الدفاع عنه، ثم طورد أعوانه واضطُهدوا، لكن السر بقي مَصوناً.

- نعم؟

- لمدة خمسة عشر ألف اكتمال للقمر... أقصد مدة خمسة عشر ألف عام.

- كم كانت مدة اكتمال القمر؟

- كانت ثلاثة عشر قمراً عادياً. نعم، وكنتُ أنا حارسة «العلامة الخامسة» في «بيت الكرستال» في اكتمال القمر رقم خمسة عشر ألفاً... كان ذلك في الأيام الأولى لمجيء «العلامة السادسة»!

تقطب حاجباها، وعبرت وجهها نظرة خوف، ثم تمتمت قائلة: بل أقرب بكثير... أقرب بكثير. خطأ... آه! نعم، تذكرت! «العلامة السادسة»...

ثم كادت تقفز واقفة، ولكنها سقطت ثانية وهي تمرر يدها على وجهها وتتمتم: ما الذي أقوله؟ إنني أهذي. هذه الأشياء لم تحدث أبداً.

قال الطبيب: لا تتعبي نفسك.

لكنها مضت تنظر إليه في حيرة مُعذَّبة، ثم قالت: لا أفهم يا حضرة الطبيب؛ لماذا تنتابني هذه الأحلام... هذه الخيالات؟ كنت في سن السادسة عشرة فقط عندما بدأ هذا معي. وأنا لم أسافر أبداً، ومع ذلك أحلم بالمدن وبشعوب غريبة وعادات غريبة. لماذا؟

ضغطت على رأسها بكلتا يديها، فسألها الدكتور روز: هل سبق أن خضعتِ لتنويم مغنطيسي من قبل أو كنت في حالة غيبوبة؟

- لم أخضع لأي تنويم مغنطيسي أبداً أيها الطبيب، أما بالنسبة للأمر الآخر فإنني أبقى أحياناً كالميتة لساعات طويلة. آه! نعم.

تكلم روز بصوت واقعي قائلاً: أريد أن أجري تجربة يا سيدتي، وقد تطرد عنك هذه الذكريات المؤلمة. سأطلب منك أن تحدقي إلى الكرستال مرة أخرى، ثم سأقول -عندها- كلمة معينة لك وتجيبين بكلمة أخرى، وسوف نستمر على هذه الطريقة إلى أن تتعبي. ركزي تفكيرك على الكرستال لا على الكلمات.

وعندما كشفتُ عن كرة الكرستال ثانيةً وأعطيتها للسيدة ماري

أنجيليك لاحظتُ التوقير الذي تمسكها به. كانت كرة الكرستال موضوعة على مخمل أسود وهي تحملها بين كفيها النحيلتين. وقد حدقت إلى الكرة بعينيها العميقتين الرائعتين، ومرت بعد ذلك فترة صمت، ثم قال الطبيب: **كلب**.

وعلى الفور أجابته السيدة ماري أنجيليك: **موت**.

* * *

لا أريد تقديم سرد كامل للتجربة، فقد ألقى الطبيب -متعمداً- كثيراً من الكلمات غير المهمة التي لا معنى لها، كما كرر كلمات أخرى عدة مرات، وأحياناً كان يحصل على نفس الإجابة عليها وأحياناً تكون الإجابة مختلفة.

ناقشنا أنا والطبيب في ذلك المساء نتيجة التجربة في بيته الصغير على المنحدر الصخري.

تنحنح وقرّب إليه دفتر ملاحظاته وقال: هذه النتائج تثير الاهتمام كثيراً، إنها غريبة جداً. ففي ردّها على عبارة «العلامة السادسة» نحصل على ردود مختلفة مثل «تدمير»، «أرجواني»، «كلب»، «قوة»، ثم «تدمير» مرة أخرى، وأخيراً «قوة». وبعد ذلك -كما لاحظتَ- فقد عكستُ الطريقة وكانت النتائج التالية: في إجابتها على كلمة «تدمير» حصلنا على «كلب»، وعلى كلمة «أرجواني» حصلنا على «قوة»، وعلى «كلب» حصلنا على «موت» مرة أخرى، وعلى «قوة» أجابت: «كلب». هذا كله ينسجم بعضه مع بعض، ولكن عند التكرار الثاني لكلمة «تدمير» أجابت بكلمة «بحر»، وهو ما يبدو غير ذي صلة بتاتاً. وإجابةً على عبارة «العلامة الخامسة» قالت:

«أزرق»، «طائر»، ثم «أزرق» مرة أخرى، وأخيراً العبارة المثيرة: «انفتاح العقل على العقل». ومن حقيقة أنها أجابت على «العلامة الرابعة» بكلمة «أصفر» ثم بعد ذلك «ضوء» وعلى «العلامة الأولى» أجابت بكلمة «دم» فإنني أستنتج أن لكل علامة لوناً معيناً وربما رمزاً معيناً. وهذا يعني أن رمز العلامة الخامسة هو الطائر، والكلب رمز العلامة السادسة. ولكني أظن أن العلامة الخامسة تمثّل ما يُعرف بالتخاطر... أي انفتاح العقل على العقل. ولا شك أن العلامة السادسة تعني قوة التدمير.

- وما معنى البحر؟

- أعترف أنني لا أستطيع تفسير هذا. ذكرت لها الكلمة بعد ذلك وحصلت على إجابة عادية وهي «قارب». وبالنسبة لكلمة «العلامة السابعة» حصلت أولاً على كلمة «حياة»، وفي المرة الثانية على كلمة «حب». وبالنسبة للعلامة الثامنة كانت إجابتها لا شيء، ولذلك أفهم أن مجموع عدد العلامات هو سبعة.

قلت من وحي اللحظة: لكن السابعة لم تتحقق، لأن التدمير جاء في السادسة!

- آه! أتظن ذلك؟ ولكننا نأخذ هذه الأفكار المجنونة على محمل الجد. إنها لا تثير الاهتمام إلّا من وجهة النظر الطبية فقط.

- سوف تجذب انتباه الباحثين النفسيين بلا شك.

ضاقت عينا الطبيب وقال: يا سيدي العزيز، ليست عندي نية لإعلان ذلك للناس.

- إذن ما هي مصلحتك؟

- إنها شخصية محضة؛ سأكتب ملاحظات على الحالة بالطبع.

قلت: فهمت.

ولكني أحسست لأول مرة أنني لم أفهم على الإطلاق. نهضت وقلت: حسناً، طابت ليلتك أيها الطبيب. سأعود إلى البلدة غداً.

- آه!

خُيِّل إليّ شيء من الرضا في كلمته، بل من الارتياح.

أكملتُ كلامي لاهياً: أتمنى لك حظاً جيداً في تحقيقاتك. لا تطلق كلب الموت ورائي عندما نلتقي ثانية!

كانت يده تصافحني وأنا أقول ذلك، وأحسست بما سبَبْته كلماتي من جفلة لديه. ولكنه استعاد ذاته بسرعة، وتكشفت شفتاه عن أسنانه المدببة الطويلة بابتسامة وقال: بالنسبة لرجل يحب القوة ماذا تعني له هذه القوة؟ أن تمسك بحياة كل إنسان داخل قبضتك!

ثم اتسعت ابتسامته.

* * *

كانت تلك نهاية علاقتي المباشرة بالقضية.

بعد ذلك وقعت في يدي مفكرة الطبيب ودفتر ملاحظاته، وسوف أظهر الملاحظات القليلة التي كانت فيها هنا رغم أنك ستدرك أنني لم أحصل عليها إلّا بعد ذلك بوقت طويل.

السابع من آب (أغسطس): أقنعت السيدة «م. أ.» بأن أنومها. نجحت في تنويمها مغنطيسياً وإدخالها في غشية روحية، ولكن لم

يحصل أي اتصال روحي.

التاسع من آب (أغسطس): أكانت توجد في الماضي حضارات لا تُعتبر حضارتنا شيئاً مقارنة بها؟ سيكون غريباً أن يكون الأمر كذلك، وسأكون أنا الرجل الوحيد الذي يملك ما يشير إلى ذلك.

الثاني عشر من آب: السيدة «م. أ.» لا تستجيب للإيحاء إطلاقاً عندما تخضع للتنويم المغنطيسي، ومع ذلك من السهل إحداث غشية لها. لا أستطيع فهمها.

الثالث عشر من آب: ذكرت السيدة «م. أ.» اليوم أنه يجب «إغلاق البوابة خشية أن يسيطر أحد آخر على الجسد». وهو أمر مثير للاهتمام، ولكنه محيّر.

الثامن عشر من آب: إذن فإن العلامة الأولى ليست إلّا... (الكلمات ممسوحة هنا) إذن كم قرناً سيستغرقه الوصول إلى العلامة السادسة؟ ولكن لو أن هناك طريقاً مختصراً إلى القوة...

العشرون من آب: رتبتُ الأمر بحيث تأتي «م. أ.» مع الممرضة، وقد أخبرتها أن من الضروري إبقاء المريضة تحت تأثير المخدر. هل أنا مجنون؟ أم أنني سأكون السوبرمان الذي بيده قوة الموت؟

(إلى هنا انتهت الملاحظات).

* * *

في اليوم التاسع والعشرين من آب (أغسطس) فيما أظن تلقيت الرسالة. كانت مكتوبة بخط أجنبي مائل، وقد أعادت أخت زوجتي

إرسالها إليّ. فتحتها ببعض الفضول، وكانت كما يلي:

سيدي العزيز،

لم أرك إلّا مرتين فقط، لكني شعرت بأن بإمكاني الوثوق بك. وسواء أكانت أحلامي حقيقية أم لا فإنها أخذت تزداد وضوحاً مؤخراً... ويبقى أمر واحد مؤكد رغم كل شيء، وهو أن «كلب الموت» ليس حلماً!

ففي الأيام التي أخبرتك عنها (لا أعرف إن كانت حقيقية أم لا) فإن الذي كان حارساً للكرستال كشف «العلامة السادسة» للناس في وقت مبكر... ودخل الشر إلى قلوبهم. امتلكوا قوة الذبح وقتما يشاؤون... وقد ذبحوا دون عدالة... بدافع الغضب، وكانوا غارقين في شهوة القوة.

عندما رأينا ذلك، نحن الذين كنّا ما نزال أطهاراً، عرفنا أن علينا منع اكتمال الدائرة والوصول إلى «علامة الحياة الأبدية». وقد صدر الأمر إلى ذلك الذي كان من شأنه أن يكون «حارس الكرستال» التالي بالتصرف، وذلك بأن يموت القديم ويأتي الجديد بعد عصور لامتناهية، **لذلك أطلق كلب الموت على البحر** (لكيلا تغلق الدائرة) ونهض البحر في شكل كلب فابتلع الأرض كلها...

في مناسبة سابقة تذكرتُ ما يلي: على دَرَج مبنى

المنتجع في بلجيكا...

إن الدكتور روز يعرف العلامة الأولى وشكل الثانية، رغم أن معناها مخفي عن الجميع باستثناء قلة مختارة. **سيتعلم مني العلامة السادسة**. لقد قاومته حتى الآن... لكنني أزداد ضعفاً يا سيدي، وليس جيداً أن يحصل الإنسان على القوة قبل أوانه، إذ يجب أن تنقضي عدة قرون قبل أن يصبح العالم مستعداً لتسلّم قوة التدمير في يديه. أتوسل إليك يا سيد، أنت الذي تحب الخير والحقيقة، أن تساعدني... قبل أن يفوت الأوان.

المخلصة: ماري أنجيليك

تركت الورقة تسقط من يدي! بدت الأرض الصلبة تحتي أقل صلابة من المعتاد، ثم بدأت أستجمع قوتي. لقد كاد اليقين الكامل للمرأة المسكينة أن يؤثر علي أنا! شيء واحد كان واضحاً، وهو أن الدكتور روز في حماسته للخروج بقضية يسيء كثيراً إلى مكانته المهنية. سأسرع و...

فجأة لاحظت رسالة من كيتي بين رسائلي الأخرى، ففتحتها. كان فيها:

حدث شيء فظيع. أتذكُرُ بيت الدكتور روز على المنحدر الصخري؟ لقد جرفه انهيار صخري الليلةَ الماضية، وقد قُتل الطبيب وتلك المريضة المسكينة السيدة ماري أنجيليك. إن الركام على الشاطئ

رهيب جداً. كله مُكوَّم على شكل كتلة غريبة...
تبدو عن بعد وكأنها كلب ضخم!

سقطت الرسالة من يدي.

* * *

ربما تكون الحقائق الأخرى مجرد مصادفة، فقد توفي فجأة شخص يدعى روز، واكتشفتُ أنه عمٌّ ثري للطبيب، وقد توفي في نفس الليلة أيضاً، وقيل إن صاعقة قد ضربته. ولكن الثابت أن أي عاصفة رعدية لم تحدث في المنطقة، وإن كان بعض الأشخاص قد أعلنوا أنهم سمعوا دوي الرعد. كان على جسده حرق كهربائي «ذو شكل غريب»، وقد نصت وصيته على ترك كل ثروته لابن أخيه الدكتور روز.

حسناً! ماذا لو أن الدكتور روز نجح في معرفة سر العلامة السادسة من السيدة ماري أنجيليك؟ لقد شعرت دائماً أنه رجل لا وازع لديه، وما كان ليتردد في قتل عمه إذا تأكد أن الشبهات لن تدور حوله. ولكن جملة واحدة في رسالة السيدة ماري أنجيليك بقيت ترن في رأسي: «حرصاً كيلا تغلق الدائرة»... لعل الدكتور روز لم يأخذ بهذا الحرص. ربما لم يدرك الخطوات التي عليه أن يتخذها أو هو لم يدرك أصلاً الحاجة لهذه الخطوات، لذلك عادت القوة التي وظفها وأكملت دائرتها...

لكن هذا كله هراء بالطبع! كل شيء يمكن تفسيره بصورة طبيعية تماماً، ولا ريب أن إيمان الطبيب بهلوسات ماري أنجيليك ليس إلّا دليلاً على أن عقله هو الآخر كان مضطرباً قليلاً.

ومع ذلك أحلم أحياناً بقارة تحت البحار عاش فيها الناس ذات مرة وبلغوا درجة من الحضارة متقدمة عنّا بكثير.

أم أن ماري أنجيليك تتذكر **رجوعاً**... وهو ما يقول البعض إنه ممكن. وهل تكون «مدينة الدوائر» هذه في المستقبل وليست في الماضي؟

هراء! الأمر كله لا يعدو كونه هلوسة بالطبع!

* * *

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمُل أن تكون قد استمتعت بقراءة جزء من هذه المجموعة القصصية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذا الكتاب (وسواه من الإصدارات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال
www.al-ajyal.com